مكونات العمل الأدبي

أ. زرقان عزّوز
ق. اللغة والأدب العربي
- جامعة جيجل

إن الكلام عن دراسة الشعر يقتضي الحديث عن مضامين تلك الأشعار وما تحمله من دلالات وليس ذلك فصلا بين الشكل والمضمون، ولكنه إبراز للعناصر التي تمثله، ذلك أن التمازج الفعلي هو الخاصية الأساسية للعمل الفني، فالانصهار في تلك المكونات الشعرية وتفاعلاتها هو الذي يوجد الروائع الأدبية ويخرجها إلى الحياة الفنية، ولن يبرز الجمال الفني إلا بالتحليل والكشف من مكامنه، والتي هي سر إعجابنا وانبهارنا به، يقول أحمد الشايب في هذا المجال: "...إن الأدب ينحل إلى هذه العناصر الأربعة: العاطفة... الخيال... الفكرة... الصورة..."[20].

تلكم هي مكونات النص الأدبي، ولكل عنصر من تلك العناصر الأربعة خاصية ومميزات فالإحساس الصادق بالأشياء هو سر العبقرية الشعرية، والفكر النافذ إلى الأعماق هو الذي يجعل النص الأدبي معبرا ومؤثرا عن الذات وعن المجتمع، كما أن الصورة البديعة وحسن ترابطها، هو الكساء الجميل، أما الخيال فهو الخيط الرفيع الذي يتسلل بين هذه العناصر كي يحدث التضامن والانسجام والتفاعل.

وانطلاقا مما سبق فإن بعض الدارسين يحددون مهمة الناقد أو الدارس في "...اكتشاف هذا الانصهار أو التوحد في البناء الشعري، وكيف تتحرك الفكرة وتتنامى من خلال الصور وكيف تتجسد في إيقاعات صوتية، وتراكيب لغوية، هذه مهمة أساسية للناقد لا ينبغي أن يصده عنها رأي شائع في شعر قديم أو حديث، أو في شعر مجدد أو مقلد، إنها محك صريح وصحيح لاكتشاف موهبة الشاعر وموهبة الناقد"[21].

---

[20] **أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، ص: 31، مكتبة النهضة المصرية، ط7، سنة 1964م.**
[21] **محمد حسن عبد الله، الصورة والبناء الشعري، ص: 192، مكتبة الدراسات الأدبية، ط؟، سنة: ؟.**

فلا تعشق في إخضاع الأدب القديم، للنظريات الحديثة، إنما ينبغي أن يدرس الأدب العربي ضمن زمنه، وبيئته وظروفه، فلا نحمله أكثر مما يتحمل، ولا نكلفه أكثر مما يستطيع، "وينبغي أن تتخذ مقاييس النقد الحديث وسيلة تساعدنا في دراسته وبيان نواحي جمله، أو تقصيره، ولذلك ينبغي أن تكون أكثر رفقا بشعرائنا القدامى فقد وجدوا في زمن غير زمننا، وفي بيئة مختلفة عن بيئتنا، فشكلوا حياتهم طبقا لذلك الزمن وتلك البيئة..."[22].

وإذا كان أحمد الشايب يسمي مكونات وعناصر ذلك التمازج والانصهار بـ "العاطفة، الخيال، والصورة، والفكرة"، فإن عبد الحميد حسين في كتابه يحددها بقوله: "...الفكرة والوجدان والنزوع والإرادة فالفكر هو ناحية المعرفة المرتبطة بالحقائق والمعاني وإدراكها والتمييز بينها، والنزوع هو القوة الدافعة التي تبعث على العمل وتحفز عليه، والوجدان هو الناحية الحساسة في النفس، وهو موطن السرور والألم، فكل آمالنا وآلامنا، ومسراتنا وأحزاننا مرجعها الوجدان، فهذا الجانب النابض الحساس...وإذا خمدت قوته، وفتر نشاطه كانت الحياة مظلمة جافة جدبة.."[23].

فهذا التطور للعمل الأدبي موجود عند نقادنا القدماء، ولم يكونوا بمنأى عنه، فإننا نجد عبد القاهر الجرجاني يقول: "إن هذا النظم الذي يتواصفه البلغاء، وتتفاضل مراتب البلاغة من أجله، صنعة يستعان عليها بالفكرة لا محال، وإذا كانت مما يستعان عليه بالفكرة ويستخرج بالروية، فينبغي أن ينظر في الفكرة، بماذا تلبس، أبالمعاني أم بالألفاظ؟

---

[22] **د/ عبد الفتاح صالح نافع، الصورة في شعر بشار، ص: 96، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ط؟ سنة 1983م.**

[23] **عبد الحميد حسين، الأصول الفنية للأدب، ص: 67، مكتبة الأنجلو-مصرية، ط2، سنة 1964م.**

فأي شيء وجدته... فهو الذي تحدث فيه صنعتك، وتقع فيه صياغتك ونظمك وتصويرك، فمحال أن تفكر في شيء، وأنت لا تصنع فيه شيئا"[24].

فهذا النص دليل تفطن نقادنا القدامى لمكونات العمل الأدبي الفني أو الصنعة كما كانت تسمى، أما حازم فيقول: "...وأحسن الأشياء التي تعرف ويتأثر لها، أو يتأثر لها إذا عرفت هي الأشياء التي فطرت النفوس على استلذاذها أو التألم منها، أو ما وجد فيه الحالان من اللذة والألم..."[25]، ويشير هنا إلى دور الوجدان وإثارته، لذلك فهو يجمع طرق الشعر المعبرة عن النفوس في ثلاثة أشياء: "...إما أن تكون مفرحة محضة يذكر فيها لقاء الأحبة في حال وجوده، واجتلاء الروض والماء وما ناسبهما، والتنعم بمواطن السرور ومجالس الأنس، وإما أن تكون مفجعة، يذكر فيها التفرق والتوحش وما ناسب ذلك.

وبالجملة أضداد المعاني المفرحة المنعمة، وإما أن تذكر فيها مستنبطات قد انصرمت فيلتذ لتخيلها، ويتألم لفقدها فتكون طريقة شاجية"[26].

وبالتالي، فالذي يستنبط من هذا النص، هو ربط الشاعر بالمشاعر، وبما يدور في أعماق النفوس وكأن غيرها من الأشعار ليس ذات قيمة، أو أن صفة الشعرية لا تناسبها.

فالبحث عن تلك المضامين للعمل الأدبي، هي التي تعطيه طعما مميزا، وبعدا غائيا، يفيد الفرد والمجتمع على حد سواء، دون أن يتحول ذلك العمل الأدبي الفني إلى فكر خالص، وإنما يبقى الشاعر صاحب الحق في أن يجوب أقطار النفس البشرية ويخوض في فلسفة كون وأسرار الحياة "...على أن يلتزم رسالة فنية، فلا تأتي حقائقه عارية من

---

[24] **عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 42، تصحيح محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط؟، سنة 1981م.**

[25] **حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص: 21، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار المغرب الإسلامي، ط؟، سنة 1981م.**

[26] **المصدر نفسه، ص: 21-22.**

الجمال، ولا تصاغ أفكاره مجردة من اللحن، أو خالية من الصورة بل يجب أن يجمع بين روعة الحقيقة، ودقة الإفصاح، وجمال التنعم، وعذوبة الوقع.."[27].

وعلى هذه الصورة يجب أن يكون العمل الأدبي ممتزج العناصر حتى يصبح من الروائع الفنية دون إهمال الحديث عن العاطفة ذا التأثير على النفوس، والتي لا ينبغي المغالاة فيها كثيرا،لأنه مهما بلغ صدقها فلن تحقق وحدها الفن، وإن كانت عاملا جوهريا فيه.

كما أن للخيال دورا فعالا، وقيمة وأهمية كبيرين: يقول د/ عبد الفتاح صالح نافع: "..لولا الخيال لجاءت صور الشاعر فرادى متناثرة لا رابط بينهما، تعتمد على العقل لا الإحساس، وتقوم على تداعي المعاني من الذاكرة دون أن تمتزج هذه المعاني بأي عاطفة أو شعور، ولعل هذا أهم ما يميز بين الشاعر المتخيل والشاعر الواهم"[28].

أما عن وجوب توفر الفكر، فيقول د/ شوقي ضيف: "ليست كل عناصر التجربة الفنية أحاسيس نفسية، ففيها أيضا العقل والفكر ، وهو من أهم عناصرها، إذ هو الذي يشرف على الأحاسيس وينظمها، ولولاه لكانت خليطا مضطربا لا تسوده وحدة ولا يسوده نظام"[29].

وإذا أردنا أن نلخص الكلام، فإننا نقول أن الذي يدرس الأدب ويتعمق في أسراره ويغوص في أغواره، لابد له من أن يسلط الأضواء على الصيغ اللغوية المعتمدة، وطريق تفجير القدرات المعقدة المتشابكة للكلمة، ورغم الارتباط المعروف والمتفق عليه بين الشكل والمعنى، فإن على الناقد ألا يقف عند حدود الشكل، ويطيل الوقوف، بل إن عليه أن يمضي إلى المضامين، إلى ما سيثيره العمل الأدبي في وجدان الإنسان، وفكره من معان وتفاسير للقضايا التي تجابه الإنسان إزاء الكون والعالم... إن ذلك يعني أن الناقد.. يتجاوز حدود الجماليات الشكلية إلى مرحلة

---

[27] **د/ محمد زكي العشماوي، الرؤية المعاصرة في الأدب والنق، ص: ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط؟، سنة: ؟.**

[28] **عبد الفتاح صالح نافع، الصورة في شعر بشار، ص: 107-108.**

[29] **د/ شوقي ضيف، في النقد الأدبي، ص: 148، دار المعارف بمصر، ط3، سنة: ؟.**

البحث عن الحق، رغم ما ينطوي عليه الحق أحيانا من صور قد لا يستجملها الإنسان للوهلة الأولى"30.

[30] **د/ عماد الدين خليل، مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي، ص: 211، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، سنة: 1987م.**